الاستشراق بين الميتافيزيقا والأنثروبولوجيا*

عمر كوش

أسطورة الغرب

شهد تاريخ الحضارات القديمة في العالم، قيام كيانات محددة لمجموعات سلالية داخل إقليم معين أو استيطان ما، إذ غالباً ما كانت المدن والدول تتحدد كأقاليم. وقد نهضت مدن وممالك كثيرة أنتجت حضارات وثقافات عديدة، تعاقب بعضها وتزامن بعضها الآخر في أقاليم معينة من الأرض، ثم زالت أو تغايرت أقاليمها، مورثة ما أنجزته لحضارات وثقافات جديدة. تحضر في هذا المجال مدن وممالك السومريين والأكاديين والآشوريين والآراميين والإغريق والفرس والصينيين وغيرهم. وانطلاقاً من علاقة الإقليم بالأرض، نجد أن الأرض لا تكف عن حركات الأرضنة وانشيالاتها في المكان الذي تشغله، متجاوزة بها كل إقليم، ومنفتحة على أجواء أخرى مختلفة ومغايرة، وإعادة الأرضنة (الأقلمة) التي تفضي عادة إلى أقاليم جديدة[1]، ليس الإقليم أرضاً فقط، إنما وسطاً ومحيطاً وبيئة مكتنفة. وقد كانت مدن الحضارات القديمة وممالكها تحقق حركات الأقلمة عبر علاقات وحركات التفاعل والتبادل المختلفة، عبر منافذ إمبراطورياتها التجارية والثقافية، وعبر الحروب والصراعات. في ذلك الوقت لم يكن «الغرب» سوى موضع جغرافي، مختلط أنّى ذهبنا بالشرق، ولا يتحدد كإقليم إلا عندما تشرق

(1) Jilles Deleuze et Felix Guttari, Qu'est-ce que la Philosphie? Minuit, 1991, p. (80).

الشمس. لم يكن الغرب مفهوماً، إنما كان مجرد نقطة في الأفق تغيب فيها الشمس، تختفي وتتوارى عن الأنظار، لكن مع ظهور الرأسمالية اكتشف الغرب ذاته، فأضحى الغرب قوة تنزع إلى امتلاك الأفق كله، إذ تأسس إيديولوجياً كصيرورة قابلة للتعيين. مع أن الصيرورة لا تأتي من التاريخ، إذ أنتجتها الذات المتمركزة على ذاتها، وتأسست معها الهوية والتصورات الميتافيزيقية في القرون الوسطى على خلفية لاهوت المسيحية القادمة من «الشرق»، والتي جرى تغريبها و«أوربتها».

الغرب الوسيط

كان الغرب الوسيط يراكم ويقوّم مكوناته ببطء، يوسع المدن ـ الحاضرات وينشر الأقاليم، وكان الأوروبي المتمع بقوة توسعية وبنفس تبشيري قوي، ينظر إلى نفسه كإنسان متميز، يخترق الأقاليم ويحضّ الآخر على التأورب، ساعياً إلى جعله نسخة عنه أو تابعاً له إن استطاع إلى ذلك سبيلا، إذاً أضحى الغرب شيئاً ما، والأسطورة أصبحت عضوية، تكثفت فيها الرؤى والتصورات، بعد أن أحيطت بهالة من المعتقدات والشعائر، وأملت أنواعاً من السلوك وفرضت أقدس الواجبات، فالغرب الذي لم يكن سوى نقطة مترددة في الأفق قد أمسى سردية تحتل الأفق. ويصبح الغرب على خلفية سرديته الكبرى اسماً مشتركاً لقوة، لإله أنتجته ميتافيزيقا التمركز على الذات، صار المقياس والمرجع الذاتي الإحالة والدلالة، فاسمه هو الأصل، بينما يعج الشرق بالغموض والبخور والدنس، مقابل الوضوح والفرق والتحليل، فالغرب لا يحب الاختلاط، بوصفه منتجاً لأسطورته العضوية الصافية، وعليه لا بد من الانفصال عن الشرق، بل ولا بد من ترويض هذا الشرق الدنس الآثم. وقد أخذ الغربي على عاتقه هذه المهمة بعد أن نسب إلى ذاته سلطة التمدين والحضارة، وعليه يجب على الوثنيين والكفار والهراطقة والمتوحشين وغيرهم من البرابرة أن «يخرجوا من الظلمة بالحق أو بالحق أو بالقوة وأن يمدّوا إذا أمكن ذلك، إلا أنهم يجب أن يبقوا في خارجية الشرق البعيد المصنوع من أسرار دنسة، من بخور وخلائط متعددة.

فالنور في الغرب ترد عليه الظلمة في الشرق»[1].

الغرب/ الكيان

لا يمكن الحديث عن الغرب بوصفه كياناً واحداً موحداً، فهو لم يكن كذلك في يوم من الأيام. كذلك فإن الشرق لم يكن موحداً في يوم ما، لكن مفهومي الغرب والشرق استخدما ووظفا في سياقات غامضة مشوشة، وساهم هذا الاستخدام في إنتاج صور نمطية وملتبسة عن الغرب وعن الشرق[2]. فقد تحول كل من الغرب والشرق إلى مفهوم متمثل أو تمثيلي بناء على ميتافيزيقا تنهض على تمركز ذاتي محاط بتمركزات عديدة مدعمة له، فابتعد الوجود المتعين لواقع كل منهما، وغاب بذلك المعطى الواقعي للمفهوم، حيث نسجت مكوناته ومركباته وفق أشكال متخيلة ونمطية تستلهم كل إمكانات التهميش والإلغاء، وفقد المفهوم أي إمكان للجدل والرأي والتواصل.

وبناء على تمركز ميتافيزيقي على الذات وضع الغرب ذاته في مركز العالم، وأقام تقابلاً ثنائياً بين الذات (الغرب) والآخر (أيّ آخر)، وعلى مبدأ أسبقية الذات على الآخر، بنى الغرب ميتافيزيقاه كلها، ووضع ذاته في مواجهة مع الآخر، بوصفه «أنا» لا تقر ولا تعترف سوى بذاتها ولذاتها في ثنائية متنافرة الطرفين: الذات/ الآخر، وهذا يفترض أفضلية القطب الأول في الثنائية الميتافيزيقية وأسبقيته على الثاني، لذلك أحيط هذا القطب (الذات) بتمركزات عديدة نتجت عن مبدأ التمركز: تمركز عرقي وتمركز لاهوتي وتمركز عقلي وتمركز صوتي وتمركز ضوئي وتمركز شمسي[3]، وهذه المفرزات الميتافيزيقية، تدور في فلك كيان متصور فصل ذاته عن العالم،

(1) جيرار ميريه، إيديولوجيا الغرب في تاريخ الإيديولوجيات بإشراف فرانسوا شاتليه، الجزء الثاني، ترجمة أنطون حمصي، وزارة الثقافة، دمشق، 1997، ص (15).

(2) أنظر: محمد نور الدين أفاية، الغرب المتخيل، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2000.

(3) أنظر في هذا المجال أعمال الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا بالفرنسية، خصوصاً: الكتابة والاختلاف، في علم الكتابة، الصوت والظاهرة.

وأعطاها هوية متفوقة على غيرها، بوصفها الكينونة الموجهة للعالم، وعليها تقع مهمة تخليص العالم من براثن التوحش، والبربرية، والتخلف، ومن مختلف الآثام والشرور، باسم التمركز والأب وروح القدس.

بذور التمركز العرقي واختلاف المعايير

لقد ارتكزت أوهام الميتافيزيقا الغربية على تقسيمات تدغدغ الذات وتروي عطشها المزعوم للتفوق، وتؤكد أفضليتها على الآخر، لذا مدّت هذه الذات جسوراً مصطنعة تربطها بالإغريق، انطلاقاً من حمى البحث عن ماضٍ عريق وأصول ذهبية، وقد تمّت، بناءً على ذلك، عملية إعادة كتابة تاريخ اليونان القديمة[1] بشكل يتماشى وأسطورة الغرب المدني والحضاري، ودعم ذلك النظرية التطورية التي صنفت الأمم والشعوب إلى أصناف متغايرة ومتعارضة مثل «متوحشون» و«برابرة» و«متمدنون»، وعليها نُسج التمركز العرقي، الذي وجد أصله النظري في التقسيم الأرسطوي للعالم القديم إلى إغريق وبرابرة، أو أحرار بالطبيعة وعبيد بالطبيعة[2].

لقد بنى أرسطو هذا الفصل الميتافيزيقي بناء على فروق غير واضحة بين البشر، كي يميّز الإغريق عن سواهم، وهو يصنف العديد من البشر تحت خانة البرابرة بغض النظر عن ثقافتهم وأقاليمهم وتقاليدهم، وخطورة التقسيم تتجلى في كونه يربط مفهوم العبودية بالمفهوم الطبيعي، مع العلم أن الإغريق لم يكونوا سوى خليط من أجناس مختلفة شرق أوسطية وآسيوية وأوروبية. وكان للأجانب فضل كبير في ازدهار الفلسفة والثقافة الإغريقية، وهذا ما دعا «جيل دولوز» يقول: «ما كانت الفلسفة إغريقية إلا بقدر ما كان الفلاسفة أجانب»[3].

(1) للتفصيل ينظر كتاب مارتن برنار «أثينا السوداء»، الجزء الأول، تلفيق بلاد اليونان، ترجمة المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 1995.

(2) أرسطوطاليس، السياسة، ترجمة أحمد لطفي السيد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1979، ص‌ص 94 ـ 103.

(3) Jilles Deleuze et Felix Guttari, qu'est-ce que la philosphie? Minuit, 1991, p. (84).

ثم استعاضت المسيحية في العصور الوسطى معيار الفصل التقابلي في ثنائية: إغريق/ برابرة بمعيار فصل ميتافيزيقي آخر يقوم على ثنائية: مؤمنون/ كافرون، وهو فصل يعتمد على معيار الإيمان بالمسيحية دون سواها من الأديان، ويتماشى مع الطبيعة التبشيرية للمسيحية، التي شنت الحروب الصليبية على خلفية الصور الميتافيزيقية التي بنتها متخيلات التمركز اللاهوتي وتعاليمه الكنسية. ومع النهضة الأوروبية دُعم التمركز العرقي، وبرز إلى الواجهة معيار «التقدم» أو «المدنية» لفصل جديد بين الشعوب، حيث بدا الغربي صورة للتفوق والصفاء والقوة. ثم بدأت، في العصر الحديث، حركة الأوربة التي تجلت بإخضاع مجتمعات وشعوب العالم للنموذج الأوروبي، عبر مختلف أشكال الانتداب والاستعمار والسيطرة، ورأت القوى المسيطرة في الغرب الحديث ضرورة إخضاع الشعوب للنموذج الغربي بوصفه النموذج الأمثل والأصلح لمختلف الشعوب، واحتل الغربي (الرجل الأبيض) فيه القطب الأول في ثنائية: المتقدم/ المتخلف التي شكلت جوهر التفكير الميتافيزيقي الفلسفي الغربي الحديث.

الأنثروبولوجيا: المتوحشون/ المتمدنون

أثرت مرتكزات التمركز العرقي الغربي على الذات على مختلف معطيات وإفرازات الثقافة الغربية، فأنتجت ضروباً من المميزات التي حاولت تصنيفها وفق نظم تراتبية وأنساق فكرية وعقلية، وخلقت معايير إقصائية للآخر وثقافته، ثم قامت باستغلال مختلف الصلات بين الشعوب وطرق حياتها لصالح مقتضيات التمركز، فالرحالة والمبشرون و«المكتشفون» الأوائل تعاملوا مع الآخر وفق منطق التمركز، وقدموا روايات وأقوالاً تقوم على معيار أفضلية الإنسان «المتمدن» على «غير المتمدن»، وساد مصطلح الإنسان «المتوحش»، ثم «البدائي» في أبحاث ودراسات التاريخ والأنثروبولوجيا والإثنولوجيا. وقد أخذت أقوال الرحالة والمبشرين الانتقائية ورواياتهم باعتبارها صورة تعبر عن واقع الشعوب «البدائية» أو «المتوحشة»، ثم ألصقت صفات وخصائص كثيرة بهذه الشعوب، ولعبت الأنثروبولوجيا دوراً هاماً في إشاعة هذه المصطلحات

وانتشارها، إذ قدم العديد من الباحثين الأنثروبولوجيين تفسيرات ودراسات حول الفكر «البدائي» واختلافه عن الفكر «المتمدن». تدخل في هذا الإطار أبحاث ودراسات رائدي علم الأنثروبولوجيا «مورغن» و«تايلر». فقد كتب «تايلر»: «تؤيد الأدلة المتوافرة الرأي القائل إن الإنسان المتمدن بشكل عام ليس أحكم وأقدر من المتوحش فحسب، بل أفضل وأسعد، وأن البربري يقف بينهما»[1]، هكذا يصنف «تايلر» البشر إلى ثلاث حالات هي: التوحش والبربرية والمدنية، ويؤكد أفضلية المتمدن على المتوحش والبربري، ويذهب «مورغن» متمادياً في إلصاقه الصفات الدنيا بالإنسان المتوحش بقوله: «يستدل على تدني الإنسان المتوحش في الموازين العقلية والأخلاقية، وعلى افتقاره للتطور والخبرة، وعلى خضوعه لشهواته الحيوانية وعواطفه الدنيئة، من بقايا الفن القديم التي تظهر في الآلات الصوانية والصخرية والعظمية، ومن حياته في الكهوف في بعض المناطق، ومن بقاياه العظمية. كما يستدل على ذلك من الوضع الراهن للقبائل المتوحشة التي ما تزال في حالة متدنية من التطور»[2]. ومع تطور علم الأنثروبولوجيا فُندت الآراء والدراسات التي ألصقت الصفات البشعة والمتدنية بالشعوب التي خضعت لمعايير الغرب «المتمدن»، فعلية الإنسان البدائي، كما بين كل من «ستروس» و«بوس»، لا تختلف بشكل جوهري عن عقلية الإنسان «المتمدن»، كما أن المكانة المتدنية والوضع الهابط اللذين ينسبان إلى المجتمعات اللاكتابية ليسا سوى نتيجة لمقارنتهما بمجتمعات حضارة قامت على ميتافيزيقا التمركز على الذات، وهي مقارنة تخفي أفكاراً مسبقة، وتقوم على معيار ومقياس ثقافة الأنثروبولوجي المنتمي إلى ثقافة التمركز وهو بحد ذاته أحد نتاجاتها. لكن حيادية الدراسات العلمية ونزاهتها تقتضي عدم جواز استخدام مثال ثقافي معين لدراسة مثال آخر، كون المعايير والتصنيفات تختلف اختلافاً شديداً بين مجموعات الثقافة

(1) البدائية، تحرير: أشلي مونتاغيو، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، عالم المعرفة، العدد (53)، أيار 1982، ص (241).

(2) المصدر السابق، ص (240).

المختلفة. كما أن مصطلحات «بدئي» أو «متوحش» أو «بربري» هي نتاج لعقلية التمركز ذاتها وصورها المتخيلة عن الآخر المختلف، بوصفها محاولة منها لإقصائه وتجريده من الصفات الإنسانية التي يتقاسمها الجميع. فليس هناك حدود فاصلة بين البشر في هذا المجال، رغم الاختلافات الواسعة، وإن وجدت فهي من صنع أوهام ميتافيزيقا التمركز والفصل والإلغاء.

ميتافيزيقا الاستشراق

ظهر الاستشراق كفعالية من فعاليات التمركز الغربي على الذات، وقد شكل الشرق في إطاره موضوعاً لتفكير نتجت عنه دراسات وأبحاث وأقوال مختلفة، بدا فيها الشرقي نمطاً ملتبساً ومفعماً بالأساطير والتصورات المغلوطة، وظهر فيه الشرق مغايراً ومفارقاً لواقع الشرق ذاته، مع أن الشرق ليس كياناً واحداً، لكن الأبحاث والدراسات الاستشراقية صورته بناء على مسبقات وأحكام التمركز الغربي. فالفصل الميتافيزيقي بين «الغرب» و«الشرق» لم يأخذ باصطلاحه المكاني والجغرافي، بل في تأكيد التباين الثقافي والسياسي والإيديولوجي بينهما في انفصامهما، لذلك فإن الاستشراق ليس ظاهرة خلقتها ظروف تاريخية محددة[1]. كما أنه لم يشكل، عبر تاريخه، إفرازاً لحاجات ومصالح الغرب الحيوية المتصاعدة، بقدر ما كان إفرازاً، قد لا نغالي إذا قلنا «طبيعياً»، لعقل ميتافيزيقي متمركز على ذاته، همّه الأساس إنتاج الآخر (أي آخر) وفق صور رغبوية ومتخيلة، تعتريها تشوهات الإحالة والفصل والمعايير الميتافيزيقية التي وسمت مجمل تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية الغربية. وهكذا، تظهر ميتافيزيقا الاستشراق الذات الغربية في زهوة تفوقها وقوتها وسطوتها، بينما تزيف ثقافة الآخر الشرقي (خصوصاً الإسلامي) وتحتقر ثقافته ولغته وديانته ووجوده، وتضعه خارج التاريخ، وخارج الفضاء الكوني المشترك الذي يناضل من أجله الجميع، مجردة إياه من القيم الإنسانية

---

(1) للتفصيل، أنظر كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق»، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984.

المشتركة، قد لا ينطبق هذا التوصيف على توجهات وجهود بعض كبار المستشرقين، إنما على مجمل حركية وفعالية الاستشراق، خصوصاً خلال مراحل اقترانها بالمدّ الاستعماري.

صور: الاستشراق/الأنثروبولوجيا

كان الاستشراق مجالاً لتطبيق ونشر العلم الحديث في الشرق، لكنه جعل من الشرق ميداناً أنثروبولوجياً وإثنولوجياً مجرداً من قيمه وتاريخه، وظهر، وفق توصيفاته، الشرقي: العربي والتركي والفارسي، صورة للشهواني القاسي، أو صورة البربري الفظ، خاصة الشمال أفريقي. يجمع بين هذه الصور دين بسيط وبدائي ومتعصب وعدواني هو الإسلام، وكانت مسيحية القرون الوسطى قد بنت هذه الصور، ونسجتها مخيلة تمركزها اللاهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية.

ورغم أن الأنثروبولوجيا نمت وتطورت مع تطور العلوم الحديثة، غير أنها شهدت تغيرات كثيرة وواسعة، تغيرت معها النظرة إلى الآخر، الشرقي وغيره، وشهد معها الاستشراق تغيراً واضحاً، من عالم مثبت يقوم على ماهية ثقافية حسب تعبير «مكسيم رودسون» ويشده الماضي وصراعاته ونظرته الإقصائية، إلى عالم ينتقد المركز ويسعى نحو عالمية تفترض «وجود طبيعة إنسانية مشتركة، تنادي بتساوي الطاقات الكامنة للثقافات من أجل تحقيق ما هو إنساني»[1]. ومع ذلك لم تفلت الأنثروبولوجيا الاستشراقية من عقلية النموذج الأوروبي الأصلح والأفضل، خصوصاً حين يتعلق الأمر بالدراسات الإسلامية. فقد خضع الإسلام إلى تاريخ شرقنة أوروبية بدءًا من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين، حيث وضع في قفص الاتهام، وتعرض لمختلف أنواع الرفض خصوصاً شخصية النبي، وشكك في أسس المجتمع الذي انبنى على دعواه، وعممت الدراسات الأنثروبولوجية والإثنولوجية على المجتمعات

(1) Hichem Djait L., Europe et l'Islam, Seuil, Paris, 1978, p. (24).

الإسلامية، مثل تلك التي قام بها «وسترمارك» و«ج. تيلون» وغيرهما على قطاعات وبنى بسيطة شملت بعض القبائل في الجزيرة العربية واليمن، وبعض قبائل البربر «الأمازيغيين» في الجزائر والمغرب، ومجموعات قبائل الطوارق في الصحراء المغاربية الكبرى وسواها. إن ثقافة وتقاليد هذه المجموعات لا تنطبق على القطاعات الغالبة في المجتمعات الإسلامية، كما أن مثل هذه الدراسات تنم عن ممارسة إثنولوجية غير علمية وغير دقيقة ويحكمها منطق استعماري في أغلب الأحيان.

ربما من الضروري، في هذا المجال، ذكر نموذج مغاير لهذه الدراسات، ويحضر هنا مؤسس الأنثروبولوجيا البنيوية «كلود ليفي ستروس»، فقد بينت دراسات هذا الفيلسوف والأنثروبولوجي تهافت صور التمركز العرقي الغربي، وقام بدراسات تخص المجال الإسلامي، حيث بدأ بدراسة الفن الإسلامي والفن «الشرقي» في الهند والبلدان المجاورة لها، من خلال علاقة الأجزاء بالكل، كما أنه درس هندسة المقابر والأضرحة، وقدم تأملات للفن المغولي الإسلامي مبنية على تحليل الأنثروبولوجي تنتهي بفلسفة التاريخ، واستعان بالتحليل النفسي الأنثروبولوجي، وقدم أبحاثاً ذات قيمة علمية عالية في كتابه «المدارات الحزينة»، إلا أن استنتاجاته وشروحها اعتراها سوء فهم ولغط كبير، خاصة عندما نقلها إلى فلسفة التاريخ[1]، من بين هذه الاستنتاجات: التعارض بين الإسلام الجامد والخالد مع المسيحية والبوذية، واللاتسامح البنيوي للإسلام، إضافة إلى التناقض ما بين الأحجام الواسعة لخارج القبر وبين ضيق مساحة القبر الذي يضم الميت. كل ذلك يبيّن مدى بعده عن الثقافة الإسلامية وفلسفتها وميراثها، ويعكس إرث وثقل إفرازات التمركز الذاتي للغرب التي طالت حتى عالم كبير في مثل مكانة «ستروس».

فاعليات الاستشراق عربياً

أثر الفكر الاستشراقي ومنهجيته على نتاجات وأطروحات العديد من

(1) Hichem Djait L., Europe et Islam, Seuil, Paris, 1978, pp. (70-80).

المفكرين والباحثين العرب في العصر الحديث، إذ ترتب على الشرقي شرقنة ذاته وفق نتاجات عقلية الاستشراق ومنظوماته، وظهرت تجليات الشرقنة في كتابات مفكري ما سمي «عصر النهضة» أو «التنوير العربي» بشكل واضح، ثم لاحقاً في أدبيات العديد من التيارات الفكرية التي ظهرت على الساحة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين. كما فعلت شرقنة الذات فعلها في العديد من الأعمال الفنية والأدبية، سواء في السينما أم الرواية وغيرهما، من خلال التركيز على الصور الغرائبية للشرق التي تستهوي أو تستجدي الذوق الغربي، والتي ربما يجد فيها الغربي جزأه المفقود/الآخر، أو صورة الآخر التي رسمها في مخيلته. وعليه تتأسس شرقنة الذات على ميتافيزيقا التماهي مع ذات «الآخر المتفوق» واللحاق بركبه، على حساب جلد «الذات الشرقية» وتعنيفها.

لقد أضحى الانتماء إلى العصر الحديث جزءًا من الانتماء إلى الغرب وثقافته، على خلفية أن إثبات الحضور في التاريخ يمر عبر بوابة اللحاق بحركة الأوربة، بغض النظر عن الإقليم المعرفي والتاريخي والجغرافي، وقد أدى ذلك إلى تشويه عمليات الأقلمة وانشيالاتها المفهومية والفكرية. أسطع مثال على ذلك نجده في أعمال طه حسين وأفكاره، فقد أحيط طه حسين خلال دراسته في فرنسا بمناخ استشرافي شبه مغلق[1]، وظهرت تأثيرات هذا المناخ جلياً في معظم كتاباته، فهو يقرر في كتابه «في الشعر الجاهلي» أن الثقافة العربية هي غربية لا شرقية، ذلك «لأن عقليتنا نفسها قد أخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية، أو قل أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية»[2]. وهذا ناتج عن إعادة إنتاجه لمقولات التمركز الغربي على الذات، فالعقل الشرقي، حسب تصور طه حسين في كتابه «قادة الفكر»، هو

(1) للتفصيل، أنظر كتاب عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 1999، ص‌ص (13 ـ 51).

(2) طه حسين، في الشعر الجاهلي، مطبعة دار الكتب المصري، القاهرة، 1926، ص (45).

عقل ديني الماهية، كما أن الشرق في تصوره منبع للنبوءات والإلهامات، بينما الغرب منبع للفلسفة والعلم، بذلك يمكن القول إن تفكير طه حسين يندرج في إطار ترددادي لمنظومة أفكار ميتافيزيقا التمركز على الذات الغربية، التي أقامت شتى أنواع التعارضات بين الغرب والشرق. ويزيد الاستشراق فاعليته حين يأخذ المفكر الشرقي مقولاته وهواجسه ليطبقها على ثقافته الشرقية، وهذا ما فعله طه حسين عندما حاول تطبيق أحد مركبات الشك الديكارتي على الشعر الجاهلي. إنه لم يدرك أن الشك الديكارتي مفهوم، ينطوي على مركبات عديدة: شك منهجي، وشك علمي، وشك هاجسي... إلخ، وأن محاولة أقلمة أحد مركبات هذا المفهوم الفلسفي للحداثة الأوروبية في حقل معرفي مختلف هو الأدب، ستؤدي بلا شك ألى وأد المفهوم في تربة معرفية لا يمكنه الطيران فوقها، بذلك تفقد أقلمة المفهوم انشيالاتها، ويكف المفهوم عن التحليق، فيذوب في الاستثمار الجديد، بعيداً عن أرضنته وعن صيرورته. غير أن شك طه حسين يندرج في منهجية الاستشراق، إذ حاول العديد من المستشرقين قبله الشك في الشعر الجاهلي وفصله عن تربته العربية[1]، من بين هؤلاء المستشرق «مارجليوث» الذي استند طه حسين إلى معظم ما ورد في كتابه «أصول الشعر العربي»[2] من حجج ومرويات.

هكذا يضع مفكر في مقام طه حسين نفسه في خدمة منظومة يتوجب عليه نقدها بدلاً من الاستسلام والانقياد وراء منهجياتها وأطروحاتها. وللأسف لا يفلت من هذا التوصيف العديد من رواد «عصر النهضة» ونظرائهم في العصر الحديث، لذلك قدموا قراءات ابتعدت عن سؤال النهضة، كونهم قرأوه قراءة فكرية لا تاريخية، فأنتجوا ولفقوا هواجس إيديولوجية، متناقضة، لم تؤسس معرفة ولا قدمت فلسفة تستكشف طرق الخلاص من التخلف أو

(1) أنظر: عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.

(2) أنظر: مرجليوث، أصول الشعر العربي، ترجمة يحيى الجبوري، جامعة قاريونس، بنغازي، 1994.

النهوض من حالة الفوات، فوقعوا في مصيدة الميتافيزيقا والمركزية، سواء المركزية الغربية أو المركزية المضادة، التي عادة ما تتشكل في سياق ردة فعل غير مدروسة وغير معروفة النتائج، وتحولت محاولاتهم في اللحاق بالغرب إلى محاولات الالتحاق بالغرب وتقليده، وفي كلا الحالتين كانت النتائج كارثية، ولم نشهد سوى مزيد من الفشل والتراجع والانهيار، إذ نشأت على خلفية ذلك العقليات الانقلابية ـ التقدمية، فجاء العسكر إلى السلطة وانقضوا على الدولة ومؤسساتها ولم يغادروها إلى الآن.